جامعة الأزهر

كلية البنات الإسلامية بأسيوط

المجلة العلمية

علاقة المقسم به بموضوع السورة القرآنية
دراسة تأصيلية وتطبيقية على سورة البروج

إعداد

د. الجازي سعيد حمد القحطاني

أستاذ مساعد بقسم الثقافة الإسلامية بكلية التربية والتنمية البشرية

جامعة بيشة ، المملكة العربية السعودية .

(العدد الثاني والعشرون)

إصدار ٠٠٠٠ يونيو

الجزء الأول

١٤٤٦هـ / ٢٠٢٥ م

علاقة المقسم به بموضوع السورة القرآنية دراسة تأصيلية وتطبيقية على سورة البروج

الجازي سعيد حمد القحطاني

قسم الثقافة الإسلامية ،كلية التربية والتنمية البشرية، جامعة بيشة ،المملكة العربية السعودية.

البريد الالكتروني: aljaza2030s@gmail.com

الملخص

تبرز أهمية هذا البحث من خلال جدة موضوعه وحيويته التي ستسهم في إثراء المكتبة القرآنية خدمة لكتاب الله تعالى بإظهار إعجاز كتابه الكريم، وبيان غزارة أسراره، والكشف عن روعة تراكيبه؛ إذ اشتمل أسلوب القسم فيه على لطائف يفتح الله بها على من يشاء من خلقه؛ فهو طريق خصب لمن ألقى فكره وعقله فيه.

وقد استخدمت المنهج الاستقرائي، والتحليلي وذلك بإظهار أوجه علاقة المقسم به بموضوعات «سورة البروج» حسب الآيات التي وردت فيها، وكذا المنهج الاستنباطي ببيان الدلالات التربوية التي اشتمل عليها أسلوب القسم في هذه السورة.

وقد تبين من خلال هذه الدراسة أن "سورة البروج" لم تخرج عن المقاصد الكلية التي اشتمل عليها القرآن الكريم، وقد برز الإعجاز في أسلوب القسم في هذه السورة من كافة جوانبه، ولو أبدل شيء منه؛ لاختل نظْمه، وانفرطت حباته، وضاع تناغمه، ولأدى إلى إظهار السورة في هيئة مفككة مهلهلة، وأما القسم على ما هو عليه في السورة الكريمة فيشعرك كأنه جداول صغيرة، تسقي المجرى الأساس الذي يدور عليه موضوعها، وهو: "تثبيت المؤمنين، وتسليتهم عما أصابهم من أعدائهم".

الكلمات المفتاحية: المقسم به، علاقة، القسم، البروج، القرآنية، السور.

The Relationship between the Object of Oath and the Theme of the Quranic Surah: A Foundational and Applied Study on Surah Al-Buruj

Al-Jazi Saeed Hamad Al-Qahtani
Department of Islamic Culture, Faculty of Education and Human Development, University of Bisha, KSA
Email: aljaza2030s@gmail.com

Abstract

The significance of this research can be attributed to the novelty and vitality of its subject. This may contribute to enriching the Quranic library and serve the Book of Allah (the Almighty). It exhibits the miraculous nature of the Holy Quran, reveals the depth of its secrets, and uncovers the magnificence of its structures. The oath style within the Holy Quran included subtle meanings that Allah grants to whomever He wills among His creation. Indeed, they represent a fertile path for those who engage their minds and intellect in it.

The inductive analytical method was utilized to reveal the aspects of the relationship between the object of oath and the themes of Surah Al-Buruj, according to the verses in which these oath objects appear. The deductive method was also used to clarify the educational implications embedded in the oath style within this Surah.

Results of this study revealed that Surah Al-Buruj remains aligned with the fundamental objectives of the Holy Quran. The miraculous nature of the oath style in this Surah is evident in all its aspects. Any alteration to its structure would disrupt its coherence, undo its subtle structures, and diminish its harmony, and cause the Surah to become fragmented and disjointed.

Regarding the oath appearing within the noble Surah, it is like small streams nourishing the main path upon which its theme revolves—namely, "strengthening the believers and consoling them for what they have endured from their enemies.

Keywords: *Object of Oath, Relationship, Oath, Al-Buruj, Surah, Quranic, Chapters of the Holy Quran.*

مقدمة

الحمدُ لله ذي المِنَنِ الجسيمة، الهادِي إلى الصراط المستقيم، ذي الإحسانِ العميمِ، الواضحِ برهانُه، الحافظ كتابه ولو كره الظالمون، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله والتابعين لهم بإحسان إلى يوم اللقاء..، **أما بعد**:

فإنك عندما تقرأ "القرآن الكريم من أوله إلى آخره تجده محكم السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قوي الاتصال، آخذ بعضه برقاب بعض في سوره وآياته وجمله، يجري دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه كأنه سبيكة واحدة، ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك ولا تخاذل كأنه حلقة مفرغة، أو كأنه سمط وحيد، وعقد فريد، يأخذ الأبصار، نُظّمت حروفه وكلماته، ونسقت جمله وآياته، وجاء آخره مساوقاً لأوله، وبدا أوله مواتيًا لآخره"(١)، وصدق الله حيث قال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَو كَانَ مِن عِندِ غَيرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفا كَثِيرا ٨٢﴾ [النِّسَاء: ٨٢].

وإن من أعظم هذه الأساليب التي يتجلى فيها إعجاز القرآن الكريم في أبهى حلله "أسلوب القسم"؛ وقد أحببت أن أتناوله من زاوية مختلفة أظهر من خلالها بعض أسرار وجماليات العلاقة بين المقسم والمقسم به في إحدى سور هذا الكتاب الحكيم، فجاء بحثي موسومًا بـ: ((علاقة المقسم به بموضوع السورة القرآنية "دراسة تأصيلية وتطبيقية على سورة البروج»)).

والله أسأل- سبحانه- أن يكتب لي القبول، وييسر لي السبيل، ويسدد قلمي، ويصوب سهمي؛ إنه على ما يشاء قدير، وهو حسبي، ونعم الوكيل.

أسباب اختياري للموضوع:

ثمة أسباب عديدة دفعتني لاختيار هذا الموضوع، أذكر منها:

أولاً: اشتمال أسلوب القسم في القرآن الكريم على لطائف ودلالات يفتح الله –

(١) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، لعبد العظيم الزرقاني، (١/ ٦٠).

عز وجل-بها على من يشاء من عبيده؛ فهو طريق خصب لكل من ألقى فكره وعقله فيه.

ثانياً: الدفاع عن القرآن الكريم، ونفي الاتهام عنه، والرد على بعض المشككين الذين يطعنون في أسلوب القسم في كتاب الله – تعالى-، ويزعمون خلوه من الفائدة.

ثالثاً: جدة الموضوع وحيويته حيث سيسهم في إثراء المكتبة القرآنية بهذا البحث خدمة لكتاب الله – جل وعلا- من خلال إظهار إعجاز كتاب الله – عز وجل –، وبيان عظمة بلاغته، وغزارة أسراره، وتذوق معانيه، والكشف عن روعة تراكيبه ونظمه.

حدود البحث:

اقتصر البحث على إظهار أوجه علاقة المقسم به بموضوعات «سورة البروج» حسب الآيات القرآنية التي ورد فيها، دون التطرق إلى ما ورد في بقية السور القرآنية إلا ما استدعاه المقام حتى لا يتشعب الحديث إلى غيره، ولا يمله القارئ.

مشكلة البحث، وتساؤلاته:

يمكن أن نظهر مشكلة البحث من خلال الإجابة عن التساؤلات الآتية:

١- ما علاقة القسم في «سورة البروج» بما قبلها؟

٢- ما علاقة القسم بالوحدة الموضوعية في «سورة البروج»؟

٣- هل لأسلوب القسم في «سورة البروج» علاقة بالقيم التربوية؟

الدراسات السابقة:

هنالك دراسات عامة تناولت القسم وعلاقته بالمقسم عليه، ومن هذه البحوث:

الأول: التناسب بين القسم المفرد وجوابه في القرآن الكريم، د/ ناصر بن محمد آل عشوان، مجلة الدراسات القرآنية- العدد (٦)، ١٤٣١هـ، ولم يشر لا من قريب ولا من بعيد إلى الحديث عن «سورة البروج»، وإنما تناول القسم بلفظ الجلالة، وبالقرآن الكريم، وبعمر الرسول – ﷺ –، والقسم بالعصر.

الثاني: التناسب بين القسم والوحدة الموضوعية في سورة النازعات- دراسة تطبيقية-، د. منيفة سالم الصاعدي- مجلة الجامعة الإسلامية للعلوم الشرعية – العدد ٢٠١ – الجزء الأول، وكما يبدو من عنوان البحث أنه تناول "سورة النازعات" فقط ولم يتطرق إلى غيرها من سور القرآن الكريم.

الثالث: بلاغة تناسب أسلوب القسم في فواتح السور القرآنية؛ الحزب الأخير نموذ جا"، العدد: التاسع والثلاثون، ٢٠٢٠ م، وبُنيت الدراسة في فواتح السور ذوات الأقسام المبنية على التضاد وهي سور: الفجر، الشمس، الليل، الضحى فحسب، وعلى فواتح السور ذوات الأقسام المبنية على التوافق، وهي: سور: البلد، التين، العاديات، ثم تعرضت لسورة العصر.

الرابع: التناسب بين المقسم به المتعدد في القرآن الكريم من "سورة الصافات، وحتى العاديات"، للباحثة: منيفة سالم الصاعدي- مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية، ومضمون البحث هو: بيان العلاقة بين المقسم به المتعدد، وقد تناول الآيات التي ترجح فيها توحيد الموصوفات، والآيات التي ترجح فيها تباين الموصوفات، والآيات التي تباينت فيها الموصوفات، وهو بحث موجز مختصر لم يتعرض إلا لبيان أركان القسم وبيان لمحة خاطفة عن التناسب بين المقسم به المتعدد.

الخامس: التناسب بين المقسم به، والمقسم عليه، وأثره في التفسير"، للباحث: محمد بن علي القرني- رسالة ماجستير – جامعة أم القرى، عام ٢٠١٢ م، وقد تعرض للحديث عن التناسب بين المقسم به المتعدد والمقسم عليه من خلال سور معينة، ومنها سورة "البروج" وتناول الحديث عن أركان القسم في السورة، وأثر التناسب بين المقسم به والمقسم عليه في التفسير.

السادس: علاقة المقسم به، والمقسم عليه- دراسة دلالية تطبيقية في القرآن الكريم- د/ عبده زيدان علي أحمد، ولم يتطرق الباحث البتة للحديث عن سورة البروج، وإنما تناول:

القسم ووحدانية الله، والقسم والقرآن الكريم، والقسم والرسول المبين، والقسم والقيامة، والقسم والإنسان.

كما إن هناك دراسات قد تناولت «سورة البروج»، من نواح أخرى منها:

الدراسة الأولى: «تفسير سورة البروج» – دراسة تحليلية–، د/ محمد عبد الله محمد سرحان– بحث منشور بمجلة كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية– جامعة الأزهر– مصر– ديسمبر ٢٠٢٤م، وقد تناول الباحث السورة من الناحية التفسيرية التحليلية البحتة، والتعرض للإعراب والبيان وما يتعلق بالمنهج التحليلي.

الدراسة الثانية: ترابط التراكيب القرآنية في سورة البروج من خلال نظرية التماسك النحوي– د. صلاح أبو الوفا العادلي همام– مجلة كلية الآداب بقنا جامعة جنوب الوادي العدد– ٥٥– أبريل ٢٠٢٢م، وقد قامت تلك الدراسة على الناحية النحوية والصرفية البحتة.

أوجه الاختلاف في البحث هنا عن الدراسات السابقة:

تتلخص أوجه الاختلاف في الآتي:

أولاً: أن جل الدراسات السابقة لم تعرف بسورة البروج تعريفاً موسعاً، وإنما اكتفت ببيان أركان القسم الوارد في السورة الكريمة، وحتى عند حديثهم عن ذلك يكون موجزاً بينما البحث هنا يجمع الأقوال الواردة في المقسم به والمقسم عليه، ويرجح بينها مستخدماً قواعد التفسير والترجيح المعمول بها عند العلماء.

ثانياً: لم تتعرض تلك الدراسات لبيان علاقة المقسم به بموضوعات «سورة البروج» الكلية، وإنما اكتفت بالحديث عن العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه فحسب بينما في بحثي هذا بينت أوجه العلاقة بين القسم وموضوعات السورة الكلية أو بمعنى آخر كشفت عن العلاقة بين القسم والوحدة الموضوعية للسورة، وهذا الذي تفرد بحثي هذا.

ثالثاً: لم تربط تلك الدراسات بالسابقة بين أسلوب القسم في «سورة البروج» والقيم التربوية.

رابعاً: جل تلك الدراسات لم تتناول "سورة البروج" البتة، ومن تعرض لها لم يستوف الحديث عنها، وبعضها تناولها من الناحية الصرفية أو الدراسة التحليلية فحسب، من هنا يظهر أن موضوع بحثي الموسوم ب: (علاقة المقسم به بموضوع السورة القرآنية «دراسة تأصيلية وتطبيقية على سورة البروج»)، لم يدرس من قبل، ولم أقف – حد علمي- على بحث علمي تناوله بهذه الطريقة؛ فشمرت عن ساعد الجد، واستعنت بالله – تعالى- لدراسة هذا الموضوع.

المنهج المستخدم في البحث:

لقد اعتمدتُ على المنهج الاستقرائي، والتحليلي في هذه الدراسة وذلك بإظهار أوجه علاقة المقسم به بموضوعات «سورة البروج» حسب الآيات القرآنية التي ورد فيها، ثُمَّ تنسيقها؛ ووضعها في المبحث الخاص بها، وعزوها إلى مواضعها من السورة، مسترشدًة بما هو مدون في كتب التفاسير مع الالتزام بالدقة والأمانة في نقل المادة العلمية، كما استعنتُ بالمنهج الاستنباطي من خلال بيان بعض الدلالات التربوية التي اشتمل عليها أسلوب القسم في «سورة البروج».

خطة البحث: اشتمل البحث على مقدمة، ومبحثين، وخاتمة، وفهارس.

المقدمة: احتوت على أهمية الموضوع وسبب اختياره، ومشكلة البحث، وتساؤلاته، والدراسات السابقة، ومنهج البحث فيه، وخطته.

المبحث الأول: بين يدي السورة الكريمة «سورة البروج»، ومفهوم القسم، ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: التعريف بسورة «سورة البروج».

المطلب الثاني: أهم الموضوعات التي اشتملت عليها «سورة البروج».

المطلب الثالث: مفهوم القسم في اللغة والاصطلاح، وأهميته.

المبحث الثاني: علاقة المقسم به بموضوعات «سورة البروج»، ويشتمل على أربعة مطالب:

المطلب الأول: المراد بالمقسم به، والمقسم عليه.

المطلب الثاني: علاقة المقسم به بالمقسم عليه في «سورة البروج».

المطلب الثالث: علاقة المقسم به بموضوعات «سورة البروج» الكلية.

المطلب الرابع: الدلالات التربوية التي اشتمل عليها أسلوب القسم في «سورة البروج».

الخاتمة: تتضمن أهم النتائج والتوصيات.

الفهارس: اشتملت على المصادر والمراجع.

المبحث الأول

بين يدي السورة الكريمة "سورة البروج"، ومفهوم القسم

المطلب الأول: التعريف بسورة البروج

قبل الشروع في صلب البحث وجوهره يستحسن أن أعرف بـ«سورة البروج» بصورة موجزة من حيث بيان: أسمائها، ووجه تسميتها بهذا الاسم، وبيان مكيها ومدنيها، وعدد آياتها، وحروفها وكلمها، وترتيبها المصحفي، والنزولي، ومناسبتها لما قبلها، وفيما يلي بيان ذلك:

- **أسماؤها**:

تسمى بسورة «السماء ذات البروج»؛ عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ «كَانَ يَقْرَأُ فِي الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ بِالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ، وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ وَنَحْوِهِمَا مِنَ السُّوَرِ»[(١)].

- **وجه تسميتها بهذا الاسم**:

سميت بذلك لذكرها لفظ "البروج" في أَوَّلها[(٢)]، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلبُرُوجِ ١﴾ [البُرُوج: ١].

- **مكية السورة**: هي مكية بإجماع من المتأولين لا خلاف في ذلك[(٣)].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، أَبْوَابُ تَفْرِيعِ اسْتِفْتَاحِ الصَّلَاةِ، بَابُ قَدْرِ الْقِرَاءَةِ فِي صَلَاةِ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ، (١/ ٢١٣ رقم ٨٠٥)، والترمذي في سننه، أَبْوَابُ الصَّلَاةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، بَابُ مَا جَاءَ فِي القِرَاءَةِ فِي الظُّهْرِ وَالعَصْرِ، (٢/ ١١٠ رقم ٣٠٧)، وقال: «حَدِيثُ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ حَدِيثٌ حَسَنٌ».

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، (١/ ٥١٠).

(٣) انظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، (٥/ ٢٣١)، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (٥/ ٤٦٠).

- **عدد آياتها**: اثنتان وعشرون آية فِي جَمِيع العدَد، لَيْسَ فِيهَا اخْتِلَاف وَلَيْسَ فِيهَا مِمَّا يشبه الفواصل شَيْء، قال الألوسي: (لا خلاف في مكيتها، ولا في كونها اثنتين وعشرين آية)[١].

- **عدد حروفها وكلماتها**: أما كلماتها: فمئة وتسع كَلِمَات. وأما حروفها: فأَربع مئة وَثَلَاثُونَ حرفا ككلم الانشقاق وحروفها[٢].

- **الترتيب المصحفي**:

هي السورة الخامسة والثمانون بعد سورة الطارق، وقبل سورة الانشقاق[٣].

- **الترتيب النزولي**:

مَعْدُودَةٌ السَّابِعَةَ وَالْعِشْرِينَ فِي تَعْدَادِ نُزُولِ السُّوَرِ، نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ «وَالشَّمْس وَضُحَاهَا»، وَقبل سُورَة «التِّينِ والزيتون»[٤] .

- **مناسبتها لما قبلها**:

ناسبت ما قبلها في اشتمالها كالتي قبلها على وعد المؤمنين ووعيد الكافرين، مع التنويه بشأن القرآن الكريم وفخامته.

واشتمالها أيضًا كالتي قبلها على وعد المؤمنين ووعيد الكافرين[٥]، قال أبو حيان الأندلسي: (لما ذكر أنه جل وعلا أعلم بما يجمعون لرسول الله ﷺ والمؤمنين من المكر والخداع، وَإِذَايَةِ من أسلم بأنواع من الأذى كالضرب والقتل والصلب والحرق بالشمس، وإحماء الصخر، ووضع أجساد من يريدون أن يفتنوه عليه، ذكر سبحانه أن هذه الشِّنْشَنَةَ

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (١٥/ ٢٩٤).

(٢) انظر: البيان في عد آي القرآن- أبو عمرو الداني، (١ / ٢٦٩)، تح: غانم قدوري الحمد، مركز المخطوطات والتراث – الكويت- الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.

(٣) انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (٥/ ٣٠٠).

(٤) انظر: الكشاف عن حقائق التنزيل، (٤ / ٧٢٩)، والتحرير والتنوير، (٣٠ / ٢٣٦).

(٥) ينظر: روح المعاني، (١٥/ ٢٩٤)، وتفسير المراغي، (٣٠ / ٩٧).

كانت فيمن تقدم من الأمم، فكانوا يعذبون بالنار، وَأَنَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ أُعْرِضُوا عَلَى النَّارِ كَانَ لَهُمْ مِنَ الثَّبَاتِ فِي الْإِيمَانِ مَا مَنَعَهُمْ أن يرجعوا عن دينهم، أَوْ يُحْرَمُوا، وَأَنَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ عَذَّبُوا عِبَادَ اللَّهِ مَلْعُونُونَ، فَكَذَلِكَ الَّذِينَ عَذَّبُوا الْمُؤْمِنِينَ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ مَلْعُونُونَ)[1].

(١) ينظر: البحر المحيط في التفسير، (١٠ / ٤٤٢).

المطلب الثاني

أهم الموضوعات التي اشتملت عليها "سورة البروج"

إن من يطالع هذه السورة الكريمة بتدبر وتأمل، يراها قد اشتملت على أوضح الدلائل، وأنصع البراهين التي تشهد بأن هذا القرآن من عند الله – عز وجل–حيث ساقت ما ساقت من عبر وعظات، بأسلوب يمتاز بحسن التقسيم، وجمال العرض، وفيما يلي عرض لأبرز أغراضها:

– أخذ العبرة من السابقين في جانبي الحق والباطل: حيث ابْتُدِئَتْ أَغْرَاضُ هَذِهِ السُّورَةِ بِضَرْبِ الْمَثَلِ لِلَّذِينَ فَتَنُوا الْمُسْلِمِينَ بِمَكَّةَ بِأَنَّهُمْ مِثْلُ قَوْمٍ فَتَنُوا فَرِيقًا مِمَّنْ آمَنَ بِاللَّهِ فَجَعَلُوا أُخْدُودًا مِنْ نَارٍ لِتَعْذِيبِهِمْ لِيَكُونَ الْمَثَلُ تَثْبِيتًا لِلْمُسْلِمِينَ وَتَصْبِيرًا لَهُمْ عَلَى أَذَى الْمُشْرِكِينَ وَتَذْكِيرَهُمْ بِمَا جَرَى عَلَى سَلَفِهِمْ فِي الْإِيمَانِ مِنْ شِدَّةِ التَّعْذِيبِ الَّذِي لَمْ يَنَلْهُمْ مِثْلُهُ وَلَمْ يَصُدَّهُمْ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِمْ.

– إِشْعَارُ الْمُسْلِمِينَ بِأَنَّ قُوَّةَ اللَّهِ عَظِيمَةٌ، فَسَيَلْقَى الْمُشْرِكُونَ جَزَاءَ صَنِيعِهِمْ، وَيَلْقَى الْمُسْلِمُونَ النَعِيمَ الْأَبَدِيَّ، وَالنَّصْرَ المبين.

– التَّعْرِيضُ لِلْمُسْلِمِينَ بِكَرَامَتِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وسوء مصير الكافرين في الآخرة.

– ضُرِبَ الْمَثَلُ بِقَوْمِ فِرْعَوْنَ وَبِثَمُودَ وَكَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ أَمْرِهِمْ عندمَا كَذَّبُوا الرُّسُلَ، فَحَصَلَتِ الْعِبْرَةُ لِلْمُشْرِكِينَ فِي فَتْنِهِمُ الْمُسْلِمِينَ، وَفِي تَكْذِيبِهِمُ الرَّسُولَ ﷺ وَالتَّنْوِيهِ بشأن الْقُرْآنِ[1].

وغير ذلك من الأغراض التي تظهر لمن تدبر السورة الكريمة لكنني اكتفيت بذكر أبرز هذه الأغراض.

(١) انظر: التحرير والتنوير، (٣٣ / ٢٦٩).

المطلب الثالث: مفهوم القسم في اللغة والاصطلاح، وأهميته

مفهوم القسم في اللغة:

والقَسَمُ، مُحَرَّكَةً والمُقْسَمُ، (كَمُكْرَمٍ) وَهُوَ المَصْدَرُ مِثْلُ المُخْرَجِ: اليَمِينُ بِاللهِ تَعالَى، وَقد أَقْسَمَ إِقْسَامًا، هَذَا هُوَ المَصْدَرُ الحَقِيقِيُّ، وأَمَّا القَسَمُ فَإِنَّه اسمٌ أُقِيمَ مُقَامَ المَصْدَرِ، ومَوْضِعُه الَّذِي حُلِفَ فِيهِ (مُقْسَمٌ، كَمُكْرَمٍ) والضَّمِيرُ راجِعٌ إِلَى الإِقْسَامِ[1].

والقسم: الحلف: يقال: أَقْسَمَ بِاللَّهِ واسْتَقْسَمَه بِهِ وقَاسَمَه: حلَف لَهُ، وتَقَاسَمَ القومُ: تَحَالَفُوا[2] قال تعالى: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ [النَّمۡل: ٤٩] أي: تحالفوا على ذلك نفسه، وقال أيضاً: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١﴾ [الأَعرَاف: ٢١] أي: حلف لهما[3]. وأصله من الْقَسَامَةُ، وهي أيمان تُقْسَمُ على أولياء المقتول، ثم صارت اسماً لكل حلف[4].

مفهوم القسم في الاصطلاح:

هو ربط النفس- بالامتناع عن شيء أو الإقدام عليه- بمعنى معظم عند الحالف حقيقة أو اعتقادًا؛ وسمي الحلف يمينًا؛ لأن العرب كان أحدهم يأخذ بيمين صاحبه عند التحالف[5]؛ وَلَا يَكُونُ القسم إِلَّا بِاسْمِ مُعَظَّمٍ[6] كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ٢٣﴾ [الذَّارِيَات: ٢٣].

---

(١) انظر: تاج العروس من جواهر القاموس، (٣٣/ ٢٦٩).

(٢) انظر: المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده، (٦/ ٢٤٧)، ولسان العرب، (١٢ / ٤٨١).

(٣) انظر: أساس البلاغة للزمخشري جار الله (٢/ ٧٧) ت: محمد باسل عيون السود ط:١: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

(٤) انظر: المفردات في غريب القرآن، (ص ٦٧٠).

(٥) انظر: الواضح في علوم القرآن، مصطفى ديب، محيى الدين ديب مستو، (ص ٢٠٧)، ط:٢: دار الكلم الطيب / دار العلوم الإنسانية - دمشق، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م.

(٦) انظر: البرهان في علوم القرآن، (٣/ ٤٠).

قال السيوطي: "هُوَ أَنْ يُرِيدَ الْمُتَكَلِّمُ الْحَلِفَ عَلَى شَيْءٍ، فَيَحْلِفُ بِمَا يَكُونُ فِيهِ فَخْرٌ لَهُ أَوْ تَعْظِيمٌ لِشَأْنِهِ أَوْ تَنْوِيهٌ لِقَدْرِهِ أَوْ ذَمٌّ لِغَيْرِهِ أَوْ جَارِيًا مجرى الغزل والترقق أَوْ خَارِجًا مَخْرَجَ الْمَوْعِظَةِ وَالزُّهْدِ كَقَوْلِهِ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُم لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ٧٢﴾ [الحجر: ٧٢] أَقْسَمَ سُبْحَانَهُ بِحَيَاةِ نَبِيهِ ﷺ ؛ تَعْظِيمًا لِشَأْنِهِ وَتَنْوِيهًا بِقَدْرِهِ"(١).

والصيغة الأصلية للقسم: أن يؤتى بالفعل (أقسم)، أو (أحلف) متعديًا بالباء إلى المقسم به، ثم يأتي المقسم عليه، وهو المسمى بجواب القسم، كقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهدَ أَيمَٰنِهِم لَا يَبعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النَّحل: ٣٨] فأجزاء صيغة القسم ثلاثة:

١ – الفعل الذي يتعدى بالباء. ٢ – والمقسم به. ٣ – والمقسم عليه.

ولما كان القسم يكثر في الكلام اختصر فصار فعل القسم يحذف، ويكتفى بالباء، ثم عوض عن الباء بالواو في الأسماء الظاهرة كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيلِ إِذَا يَغشَىٰ ١﴾ [اللَّيل: ١] وبالتاء في لفظ الجلالة كقوله تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصنَٰمَكُم ٥٧﴾ [الأَنبِيَاء: ٥٧] وهذا قليل، أما الواو فكثيرة(٢).

وأما أدوات القسم فهي: الباء، والواو، والتاء(٣).

وقد أقسَمَ الله –جل شأنه– في كتابه العزيز على أمور كثيرة ترجع في جملتها إلى أمرين: الأول: أصول الإيمان. والثاني: حال الإنسان، قال الإمام ابن القيم – رحمه الله–: "فهو سبحانه يقسِم على أصول الإيمان التي يجب على الخلق معرفتها، وتارةً يقسِم على التوحيد، وتارة يقسِم على أن القرآن حقٌّ، وتارة على أن الرسول حقٌّ، وتارة على الجزاء والوعد والوعيد، وتارة على حال الإنسان"(٤).

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، (٣/ ٣٢٠).

(٢) انظر: الواضح في علوم القرآن، مصطفى ديب البغا، (ص ٢٠٧).

(٣) انظر: الإتقان في علوم القرآن، (٤/ ٥٧).

(٤) التبيان في أقسام القرآن، (٣، ٤).

أهمية القسم في الخطاب القرآني: ترجع أهمية القسم إلى أنه طريقة من طرق توكيد الكلام وإبراز معانيه ومقاصده على النحو الذي يريده المتكلِّم؛ إذ يؤتي به لدفع إنكار المنكرين أو إزالة شك الشاكِّين؛ لأن الأساليب الخبرية تختلف باختلاف غرض المتكلِّم وحال المخاطب؛ فإذا كان المخاطَب خالي الذهن، جاءه الخبر من المتكلم من غير توكيد بالقسم ولا بغيره، وإذا كان المتكلم قد رأى أن المخاطب يشك في كلامه أكَّدَ له القول بنوع من أنواع التوكيد، وأهمها: القسم، وإذا كان قد رأى المخاطَب ينكِرُ قوله، كان التوكيد أولى وألزم(١).

ومن أغراض القسم ومقاصده في كتاب الله – عز وجل-:

– تحقيق الخبر وتوكيده: ليكون أوقع في التلقي، وأرجى للقبول كقوله تعالى: ﴿وَيَستَنبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُل إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّ وَمَآ أَنتُم بِمُعجِزِينَ ٥٣﴾ [يُونُس: ٥٣]

– بيان شرف المقسم به، وعلو قدره حتى يعرف الناس مكانته عند الله ورفعة منزلته لديه كما في قوله تعالى مبينًا شرف القرآن وقدره: ﴿وَٱلقُرءَانِ ذِي ٱلذِّكرِ ١﴾ [ص: ١].

– توجيه الأنظار إلى الآيات الكونية، والمشاهد الطبيعية؛ للتوصل منها إلى خالقها، والتأمل فيها تأملاً يبين مبلغ نعمتها، وأنها غير جديرة بالعبادة، وإنما الجدير بالعبادة هو خالقها، وذلك كالقسم بالسماء وبنائها، وبالنفس وخلقها، في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ٥﴾ [الشَّمس: ٥] ، ﴿وَنَفس وَمَا سَوَّىٰهَا ٧﴾ [الشَّمس: ٧] ، وقال تعالى: ﴿وَٱلنَّجمِ إِذَا هَوَىٰ ١﴾ [النَّجم: ١] ، منبهًا بقوله: "هوى" أي: غاب وسقط– إلى أنه لا يجوز أن يعبد؛ لأنه مخلوق وعرضة للغياب والزوال(٢).

قال الإمام ابن القيم – رحمه الله–: "والمقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه فلابد أن يكون مما يحسن فيه ذلك كالأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها. فأما الأمور

(١) انظر: دراسات في علوم القرآن، محمد بكر إسماعيل (ص ٣١٧)– ط: ٢: دار المنار– ١٤١٩هـ– ١٩٩٩م.

(٢) انظر: الواضح في علوم القرآن، (ص ٢٠٧، ٢٠٨).

الظاهرة المشهورة كالشمس والقمر والليل والنهار والسماء والأرض، فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها"[1].

- إظهار التألم والتحسر على فوات شيء: قال تعالى: ﴿وَيَومَ يُعرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيسَ هَٰذَا بِٱلحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلعَذَابَ بِمَا كُنتُم تَكفُرُونَ ٣٤﴾ [الأحقاف: ٣٤] ، وغير ذلك من الأغراض والمقاصد التي تظهر للناظر في القرآن الكريم، والله أعلم.

(١) التبيان في أقسام القرآن، (ص ٢).

المبحث الثاني

علاقة المقسم به بموضوعات "سورة البروج"

المطلب الأول: المراد بالمقسم به، والمقسم عليه

أولًا: المراد بالمقسم به:

أقسم الله – عز وجل– في «سورة البروج» بثلاث أشياء قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ۝٣﴾ [البُروج: ١ – ٣].

(١) أما المقسم به في قوله سبحانه: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ١﴾ [البُروج: ١] ، فقد اختلف فيه المفسرون على خمسة أقوال؛ إليك بيانها حسب الآتي:

القول الأول: قصور في السماء على التشبيه، شُبِّهَتْ مَنَازِلُ هَذِهِ النُّجُومِ بِالْقُصُورِ لِكَوْنِهَا تَنْزِلُ فِيهَا، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما، والضحاك بن مزاحم.

القول الثاني: النجوم التي هي منازل القمر؛ لأنها تتبرج بنورها، وهذا قول مجاهد بن جبر المكي، وقتادة.

وهذا القول يرجع إلى أصلَ مادة الكلمة التي تدلُّ على البروز والظهور، فتحتمل دخول النجومِ فيها؛ لأنها ظاهرة مشاهدة للعيان.

القول الثالث: السماء ذات الرمل والماء، وضعفه ابن عطية[١].

القول الرابع: وقيل: عظام الكواكب؛ سميت بروجاً لظهورها.

القول الخامس: وقيل: أبواب السماء[٢].

القول السادس: قَالَ الْمِنْهَالُ بْنُ عَمْرٍو: وَالسَّماءِ ذاتِ الْخَلْقُ الْحَسَنُ[٣].

---

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، (٢٤ / ٣٣١، ٣٣٢)، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (٥/ ٤٦٠)، والبحر المحيط في التفسير، (١٠ / ٤٤٢)، وفتح القدير، (٥/ ٤٩٨).

(٢) ينظر: الكشاف عن حقائق التنزيل، (٤ / ٧٢٩).

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم، (٨ / ٣٥٧).

- الترجيح بين هذه الأقوال السابقة:

الراجح – والله أعلم– أن المراد بها هنا: "المنازل الخاصة بالكواكب السيارة، ومداراتها الفلكية الهائلة"، وذلك للأسباب الآتية:

أولًا: أنه قول جمهور المفسرين كما نص عليه الإمام ابن عطية الأندلسي(١).

ثانيًا: أنه يتفق مع اللغة التي نزل بها القرآن الكريم، وهي لغة العرب، فهذا القول قد اعتمد المعنى الأشهر من اللفظ.

قال ابن جرير: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: معنى ذلك: والسماء ذات منازل الشمس والقمر، وذلك أن البروج جمع برج، وهي منازل تتخذ عالية عن الأرض مرتفعة، ومن ذلك قول الله: ﴿وَلَو كُنتُم فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النِّسَاء: ٧٨] ، أي: منازل مرتفعة عالية في السماء، وهي اثنا عشر برجاً، فمسير القمر في كل برج منها يومان وثلث، فذلك ثمانية وعشرون منزلاً ثم يستتر ليلتين، ومسير الشمس في كل برج منها شهر"(٢).

ثالثًا: أما من جعل هذه القصور لحرسِ السماء، فإنه يفتقر إلى ما يعضده ويتأيد به من خبرِ صادق عن المعصوم ﷺ ؛ لأن مثل ذلك التحديد لا يمكن أن يُعرفَ إلا من جهة النقل الثابت الذي لا مرية فيه، والله أعلم.

(٢) وأما المقسم به في قوله سبحانه: ﴿ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ﴾ [البُرُوج: ٢] ، فقد اتفق المفسرون على أن المراد به "يوم القيامة وعد الله أهل السماء وأهل الأرض أن يصيروا إلى ذلك اليوم"(٣)؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – أَمَّا عَلِيٌّ، فَرَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، وَأَمَّا يُونُسُ، فَلَمْ يَعْدُ

(١) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (٥/ ٤٦٠).

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، (٢٤ / ٣٣٢).

(٣) ينظر: بحر العلوم للسمرقندي، (٣/ ٥٦٣)، والوسيط في تفسير القرآن المجيد، (٤/ ٤٧٥).

أَبَا هُرَيْرَةَ -، أَنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ [البُرُوج: ٣] قَالَ- يَعْنِي-: "الشَّاهِدَ يَوْمَ عَرَفَةَ، وَالْيَوْمُ الْمَوْعُودُ: يَوْمُ الْقِيَامَةِ"(١).

قال ابن جرير: "وقوله: ﴿ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ﴾ يقول تعالى ذكره: وأقسم باليوم الذي وعدته عبادي لفصل القضاء بينهم، وذلك يوم القيامة؛ وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل، وجاء الخبر عن رسول الله ﷺ "(٢).

(٣) أما المقسم به في قوله سبحانه: ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ [البُرُوج: ٣] ، فقد اختلف فيه المفسرون على أربعة وعشرين قولاً:

أحدها: أن الشاهد: يوم الجمعة، والمشهود: يوم عرفة، رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ وبه قال علي، وابن عباس في رواية، وابن زيد؛ فعلى هذا سمي يومُ الجمعة شاهدًا؛ لأنه يشهد على كل عامل بما يعمل فيه، وسمي يومُ عرفة مشهودًا؛ لأن الناس يشهدون فيه موسم الحج، وتشهده الملائكة.

الثاني: أن الشاهد: يوم الجمعة، والمشهود: يوم النحر، قاله ابن عمر.

الثالث: أن الشاهد: الله، والمشهود: يوم القيامة، رواه الوالبي عن ابن عباس.

الرابع: أن الشاهد: يوم عرفة، والمشهود: يوم القيامة، رواه مجاهد عن ابن عباس.

الخامس: أنّ الشاهد: محمد ﷺ ، والمشهود: يوم القيامة، رواه يوسف بن مهران عن ابن عباس، وبه قال الحسن بن علي.

السادس: أن الشاهد: يوم القيامة، والمشهود: الناس، قاله جابر بن عبد الله.

السابع: أن الشاهد: يوم الجمعة، والمشهود: يوم القيامة، قاله الحسن.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، مُسْنَدُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، (١٣/ ٣٥١ رقم ٧٩٧٢)، وقال محققه: "المرفوع منه ضعيف لضعف علي بن زيد – وهو ابن جدعان-، والموقوف لا بأس به رجاله رجال الصحيح".

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، (٢٤ / ٣٣٢).

الثامن: أن الشاهد: يوم التروية، والمشهود: يوم عرفة، قاله سعيد بن المسيب.

التاسع: أن الشاهد: هو الله، والمشهود: بنو آدم، قاله سعيد بن جبير.

العاشر: أن الشاهد: محمد، والمشهود: يوم عرفة، قاله الضحاك.

الحادي عشر: أن الشاهد آدم، والمشهود: يوم القيامة، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد.

الثاني عشر: أن الشاهد: ابن آدم، والمشهود: يوم القيامة، قاله مجاهد، وعكرمة.

الثالث عشر: أن الشاهد: آدم، وذريته، والمشهود يوم القيامة، قاله عطاء بن يسار.

الرابع عشر: أن الشاهد: الإنسان، والمشهود: الله عز وجل، قاله محمد بن كعب.

الخامس عشر: أن الشاهد: يوم النحر، والمشهود: يوم عرفة، قاله إبراهيم.

السادس عشر: أن الشاهد: عيسى ابن مريم عليه السلام، والمشهود: أمته، قاله أبو مالك. ودليله قوله عز وجل: ﴿وَكُنتُ عَلَيهِم شَهِيدا﴾ [المَائِدَة: ١١٧].

السابع عشر: أنّ الشاهد: ﷺ ، والمشهود: أمته، قاله عبد العزيز بن يحيى، وبيانه: ﴿وَجِئنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدا ﴾ [النِّسَاء: ٤١].

الثامن عشر: أن الشاهد: هذه الأمة، والمشهود: سائر الناس، قاله الحسين بن الفضل، ودليله: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البَقَرَة: ١٤٣] .

التاسع عشر: أن الشاهد: الحفظة، والمشهود: بنو آدم، قاله محمد بن علي الترمذي، وحكي عن عكرمة نحوه.

العشرون: أن الشاهد: الحق، والمشهود: الكون، قاله الجنيد.

الحادي والعشرون: أن الشاهد، الحجر الأسود، والمشهود: الحجاج.

الثاني والعشرون: أن الشاهد: الأنبياء والمشهود: رسول الله ﷺ ، وبيانه: ﴿وَإِذ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّنَ﴾ [آل عِمرَان: ٨١].

الثالث والعشرون: أن الشاهد: الله عز وجل، والملائكة، وأولو العلم، والمشهود: لا إله إلا الله، وبيانـــه: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عِمرَان: ١٨].

الرابع والعشرون: أن الشاهد: الأنبياء والمشهود: الأمم، حكاه علي بن عبيد الله[١].

- الترجيح من بين هذه الأقوال السابقة:

بعد ذكر الأقوال الواردة، ورد في تفسير هذه الآية ما يبين لنا أنه جاء فيه اختلافٌ كثير، وإذا تأملته وجدتَه من قبيل "اختلاف التنوع"[٢]، وأنه من قبيلِ "التفسير بالمثال" أو "الاسم العام" الذي يذكر المفسِّرون له أمثلةً تدلُّ عليه، وتنبيه المستمع على النوع لا على سبيل الحد المطابق للمحدود في عمومه وخصوصه[٣].

قال ابن القيم: (ثم أقسَمَ سبحانه بالشاهدِ والمشهود مطلَقين غير معيَّنين، وأعمُّ المعاني فيه أنه المدرِك والمدرَك، والعالِم والمعلوم، والرائي والمَرئي، وهذا أَلْيَقُ المعاني به، ما عداه من الأقوال ذكرت على وجه التمثيل، لا على وجه التخصيص)[٤].

وقال القاسمي: "وَشاهِدٍ وهو كل ما له حس يشهد به وَمَشْهُودٍ وهو كل محسّ يشهد بالحس، فيدخل فيه العوالم المشهودة كلها، وتخصيص بعض المفسرين بعضاً مما يتناوله

---

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير، (٤/ ٤٢٤، ٤٢٥)، والنكت والعيون، (٦/ ٢٤١).

(٢) هو أن يعبر كل واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه، تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى بمنزلة الأسماء المتكافئة التي بين المترادفة والمتباينة كما قيل في اسم السيف: الصارم والمهند، وذلك مثل أسماء الله الحسنى، وأسماء القرآن، فإن أسماء الله كلها تدل على مسمى واحد، فليس دعاؤه باسم من أسمائه مضاداً لدعائه باسم آخر، بل الأمر كما قال تعالى:﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الإسرَاء: ١١٠]. ينظر: مقدمة في أصول التفسير، (ص١١).

(٣) ينظر: مقدمة في أصول التفسير، (ص ١٤).

(٤) التبيان في أقسام القرآن لابن قيم الجوزية (ص ٨٩)- ت: محمد حامد الفقي- ط: دار المعرفة، بيروت، لبنان.

لفظهما لعله؛ لأنه الأهم أو الأولى أو الأعرف والأظهر؛ لقرينة عنده وإلا فاللفظ على عمومه حتى يقوم برهان على تخصيصه"[١].

ثانياً: المراد بالمقسم عليه:

اختلف العلماء في ذلك على أقوال:

الأول: أنه قوله تعالى: ﴿ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ﴾ [البُرُوج: ٤] ؛ بتقدير اللام وقد[٢]، أي: وحق السماء ذات البروج، وحق اليوم الموعود، وحق الشاهد والمشهود، لقد قتل ولعن أصحاب الأخدود[٣]، وطردوا من رحمة الله بسبب كفرهم وبغيهم[٤].

الثاني: قيل: إن جواب القسم محذوف؛ لعلم السامع به، دل عليه قوله تعالى: ﴿ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ﴾ [البُرُوج: ٤] ؛ كأنه قيل: أقسم بهذه الأشياء إن كفار مكة لملعونون كما لعن أصحاب الأخدود، أو لتعبثن ونحوه[٥].

قال ابن القيم: (والأحسن أن يكون هذا القسم مستغنياً عن الجواب لأن القصة التنبيه على المقسم به وأنه من آيات الرب العظيمة ويبعد أن يكون الجواب {قُتِلَ أَصۡحَٰبُ

---

(١) محاسن التأويل، (٩ / ٤٤٣).

(٢) ينظر: إعراب القرآن لأبي جعفر النَّحَّاس، (٥ / ١١٩)- ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١ هـ، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (٩/ ١٣٥).

(٣) وردَ خلافٌ بين العلماء المتقدمين في تحديد أصحابِ الأخدودِ ومكانِهم، وقد وردَ في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ ذكر أصحاب الأخدود الذين في اليمن، ولكن الرسولَ ﷺ لم يُشِرْ في هذه القصة التي يذكرها للصحابة إلى هذه الآيات، ولذا يقال: إن كل ما ذكر من أهل الأخاديد فإنه داخلٌ في عموم هذه الآية، خاصة هؤلاء الذين ذكرَ النبي ﷺ قصَّتَهُم، وهذا يكونُ من باب "تفسير القرآن بالسنَّة"؛ لأن المفسِّرَ أخذ من هذه القصة المطابِقة لمنطوق الآية ففسَّر بها، والله أعلم.

(٤) ينظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، (١٥ / ٣٤٤).

(٥) ينظر: المحرر الوجيز، (٥/ ٤٦٢)، والدر المصون في علوم الكتاب المكنون، (١٠/ ٧٤٣).

الْأُخْدُودِ} الذين فتنوا أولياءه وعذبوهم بالنار ذات الوقود ثم وصف حالهم القبيحة بأنهم قعود على جانب الأخدود شاهدين ما يجري على عباد الله تعالى وأوليائه عياناً ولا تأخذهم بهم رأفة ولا رحمة ولا يعيبون عليهم ديناً سوى إيمانهم بالله العزيز الحميد الذي له ملك السماوات والأرض وهذا الوصف يقتضي إكرامهم وتعظيمهم ومحبتهم فعاملوهم بضد ما يقتضي أن يعاملوا به وهذا شأن أعداء الله دائماً ينقمون على أوليائه ما ينبغي أن يحبوا ويكرموا لأجله)[1].

الثالث: ومنهم من قال الجواب: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البُرُوج: ١٢] ؛ التقدير: "قتل أصحاب الأخدود، والسماء ذات البروج"[2]، أَيْ: وَالْكَلَام الَّذِي بَيْنَهُمَا اعْتِرَاضٌ قُصِدَ بِهِ التَّوْطِئَةُ لِلْمُقْسَمِ عَلَيْهِ، وتوكيد التَّحْقِيق الَّذِي أَفَادَهُ الْقَسَمَ بِتَحْقِيقِ ذِكْرِ النَّظِيرِ[3].

قال أبو جعفر تعقيباً على هذا: (وهذا غلط بيّن وقد أجمع النحويون على أنه لا يجوز والله قام زيد بمعنى قام زيد والله، وأصل هذا في العربية أنّ القسم إذا ابتدئ به لم يجز أن يلغى ولا ينوى به التأخير، وإذا توسّط أو تأخّر جاز أن يلغى)[4].

الرابع: قال آخرون: هو في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البُرُوج: ١٠].

الترجيح بين الأقوال السابقة:

الراجح – والله أعلم– القول الأول؛ لتحقق العلاقة بين المقسم عليه والمقسم به، ويكون خبر عن الله عما حدث مع هؤلاء، وهو ما اختاره أبو حيان حيث قال: (وَقِيلَ: قُتِلَ وَهَذَا نَخْتَارُهُ، وَحُذِفَتِ اللَّامُ أَيْ: لَقُتِلَ، وَحَسُنَ حَذْفُهَا كَمَا حَسُنَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱلشَّمسِ وَضُحَىٰهَا ١﴾ [الشَّمس: ١]، ثُمَّ قَالَ: ﴿قَد أَفلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩﴾ [الشَّمس: ٩] ، أي: لقد

(١) التبيان في أقسام القرآن، (ص ٩١).

(٢) ينظر: التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري (٢/ ١٢٨٠)– ت: علي محمد البجاوي– الناشر: عيسى البابي الحلبي وشركاه، وإعراب القرآن لأبي جعفر النَّحَّاس، (٥ / ١١٩).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، (٣٠ / ٢٤٠).

(٤) إعراب القرآن لأبي جعفر النَّحَّاس، (٥ / ١١٩).

أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَيَكُونُ الْجَوَابُ دَلِيلًا عَلَى لَعْنَةِ اللَّهِ عَلَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، وَطَرْدِهِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَتَنْبِيهًا لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ لِيَفْتِنُوهُمْ عَنْ دِينِهِمْ عَلَى أَنَّهُمْ مَلْعُونُونَ بِجَامِعِ مَا اشْتَرَكَا فِيهِ مِنْ تَعْذِيبِ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِذَا كَانَ قُتِلَ جَوَابًا لِلْقَسَمِ، فَهِيَ جُمْلَةٌ خَبَرِيَّةٌ)[1].

(١) البحر المحيط في التفسير، (١٠ / ٤٤٣، ٤٤٤).

المطلب الثاني

علاقة المقسم به بالمقسم عليه في "سورة البروج"

لقد أقسم الله – سبحانه– بما فيه غيب وشهود، وهو:﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ﴾ [البُرُوج: ١]، فإن كواكبها مشهود نورها، مرئي ضوؤها، معروفة حركاتها في طلوعها وغروبها، وكذلك البروج نشاهدها وفيها غيب لا نعرفه بالحس، وهو حقيقة الكواكب وما أودع الله فيها من القوى وما فيها من عوالم لا نراها ولا ندرك حقيقتها.

وأقسم بما هو غيب صرف، وهو ﴿ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ﴾ [البُرُوج: ٢]، وما يكون فيه من حوادث البعث والحساب والعقاب والثواب، وأقسم بما هو شهادة صرفة وهو "الشاهد"، أي: ذو الحس، و"المشهود" هو ما يقع عليه الحس.

فأقسم سبحانه بكل ما سلف؛ لما فيه من عجيب الصنعة، وباهر الحكمة، ولما فيه من مصالح ومنافع للناس فى هذه الحياة تدل على أن لها صانعاً حكيماً مدبراً، ويحثنا أيضاً على البحث عن هذه العوالم؛ لنستدل بذلك على عظيم قدرته، وجليل حكمته(١).

قال الفخر الرازي: "وَإِنَّمَا حَسُنَ الْقَسَمُ بِهَا لِمَا فِيهَا مِنْ عَجِيبِ الْحِكْمَةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ سَيْرَ الشَّمْسِ فِيهَا وَلَا شَكَّ أَنَّ مَصَالِحَ الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ مُرْتَبِطَةٌ بِسَيْرِ الشَّمْسِ؛ ولِمَا فِي سَيْرِ الْقَمَرِ وَحَرَكَتِهِ مِنَ الْآثَارِ الْعَجِيبَةِ؛ فَيَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ لَهَا صَانِعًا حَكِيمًا"(٢).

والمتأمل في علاقة المقسم به بالمقسم عليه في «سورة البروج» يجد أن بينهما علاقة وطيدة؛ فكل منهما آخذ بحجز الآخر، لا ينفك أحدهما عن صاحبه؛ فالعلاقة بينهما علاقة تآخي وتعانق؛ فـ"البروج" منازل الكواكب والنجوم، وأصحاب الأخدود منازلهم النار ذات الوقود كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ١٠﴾ البُرُوج: ١٠] ، والمؤمنون منازلهم جنات تجري من تحتها

(١) ينظر: تفسير المراغي، (٣٠ / ٩٨، ٩٩).

(٢) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، (٣١ / ١٠٦).

الأنهار كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ١١ ﴾ [البُرُوج: ١١].

وقد أفصح عن ذلك العلامة الطاهر بن عاشور؛ إذ يرى أن العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه هو جامع الشبه بين أقسام النجوم وبريقها ولمعانها، واتقاد نار الأخدود وتوهجها وتلهبها فقال – رحمه الله–: "ومناسبة القسم لما أقسم عليه: أن المقسم عليه تضمن العبرة بقصة أصحاب الأخدود، ولما كانت الْأَخَادِيدُ خطوطًا، مجعولة في الأرض، مُسْتَعِرَةً بالنار، أقسم على ما تضمنها بالسماء بقيد صفة من صفاتها التي يلوح بها للناظرين في نجومها ما أسماه العرب بروجًا، وهي تشبه دَارَاتٍ مُتَلَأْلِئَةً بأنوار النجوم اللامعة الشبيهة بتلهب النار".

وَالْقَسَمُ بِالسَّمَاءِ بِوَصْفِ ذَاتِ الْبُرُوجِ يَتَضَمَّنُ قَسَمًا بِالْأَمْرَيْنِ مَعًا لِتَلْتَفِتَ أَفْكَارُ الْمُتَدَبِّرِينَ إِلَى مَا فِي هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَهَذِهِ الْأَحْوَالِ مِنْ دَلَالَةٍ عَلَى عَظِيمِ الْقُدْرَةِ، وَسَعَةِ الْعِلْمِ الْإِلَهِيِّ؛ إِذْ خَلْقُهَا عَلَى تِلْكَ الْمَقَادِيرِ الْمَضْبُوطَةِ لِيَنْتَفِعَ بِهَا النَّاسُ فِي مَوَاقِيتِ الْأَشْهُرِ وَالْفَصْلِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي نَحْوِ هَذَا: ﴿ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٩٧ ﴾ [المَائِدَة: ٩٧] .

وَأَمَّا مُنَاسَبَةُ الْقَسَمِ بِـ"الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ"؛ فَلِأَنَّهُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ التَّأْوِيلِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ وَعَدَ بِوُقُوعِهِ قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ [المَعَارِج: ٤٤]، مَعَ مَا فِي الْقَسَمِ بِهِ مِنْ إِدْمَاجِ الْإِيمَاءِ إِلَى وَعِيدِ أَصْحَابِ الْقِصَّةِ الْمُقْسَمِ عَلَى مَضْمُونِهَا، وَوَعِيدِ أَمْثَالِهِمُ الْمُعَرَّضِ بِهِمْ.

وَمُنَاسَبَةُ الْقَسَمِ بِـ"شَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ" عَلَى اخْتِلَافِ تَأْوِيلَاتِهِ، وَهِيَ قَرِيبَةٌ مِنْ مُنَاسَبَةِ الْقَسَمِ بِالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ، وَيُقَابِلُهُ فِي الْمُقْسَمِ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ﴾ [البُرُوج: ٧] [(١)]. وقد أبان عن ذلك أيضاً الإمام ابن القيم – رحمه الله– فقال: (فإن قيل فما وجه الارتباط بين هذه الأمور الثلاثة المقسم بها؟ قيل: هي بحمد الله في غاية

(١) التحرير والتنوير، (٣٠ / ٢٣٧، ٢٣٨).

الارتباط والأقسام بها متناول لكل موجود في الدنيا والآخرة، وكل منها آية مستقلة دالة على ربوبيته وألوهيته، فأقسم بالعالم العلوي وهي:" السماء" وما فيها من "البروج" التي هي أعظم الأمكنة وأوسعها، ثم أقسم بأعظم الأيام وأجلها قدرًا الذي هو مظهر ملكه، وأمره ونهيه، وثوابه وعقابه، ومجمع أوليائه وأعدائه، والحكم بينهم بعلمه وعدله، ثم أقسم بما هو أعم من ذلك كله وهو الشاهد والمشهود، وناسب هذا القسم ذكر "أصحاب الأخدود" الذين عذبوا أولياءه، وهم شهود على ما يفعلون بهم، والملائكة شهود عليهم بذلك، والأنبياء – عليهم السلام– وجوارحهم تشهد به عليهم أيضاً، فالشاهد هو المطلع والرقيب والمخبر، والمشهود وهو المطلع عليه المخبر به المشاهد، فمن نوع الخليقة إلى شاهد ومشهود، وهو أقدر القادرين كما نوعها إلى مرئي لنا وغير مرئي كما قال: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩ ﴾ [الحَاقَّة: ٣٨ – ٣٩] ، كما نوّعها إلى أرض وسماء، وليل ونهار، وذكر وأنثى، وهذا التنويع والاختلاف من آياته سبحانه، كذلك نوّعها إلى شاهد ومشهود.

وفيه سر آخر: وهو أن من المخلوقات ما هو مشهود عليه، ولا يتم نظام العالم إلا بذلك، فكيف يكون المخلوق شاهداً رقيباً حفيظاً على غيره، ولا يكون الخالق تبارك وتعالى شاهداً على عباده مطلعاً عليهم رقيباً. وأيضاً فإن ذلك يتضمن القسم بملائكته وأنبيائه ورسله، فإنهم شاهدون على العباد، فيكون من باب اتحاد المقسم به والمقسم عليه، كما أقسم باليوم الموعود وهو المقسم به وعليه، وأيضًا فيوم القيامة مشهود كما قال تعالى ﴿ذَٰلِكَ يَوم مَّجمُوع لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوم مَّشهُود ﴾ [هُود:] يشهده الله وملائكته والإنس والجن، والوحش من آياته، والمشهود من آياته.

وأيضًا فكلامه مشهود كما قال تعالى: ﴿وَقُرءَانَ ٱلفَجرِ إِنَّ قُرءَانَ ٱلفَجرِ كَانَ مَشهُودا ﴾ [الإسرَاء: ٧٨] ، تشهده ملائكة الليل، وملائكة النهار، فالمشهود من أعظم آياته، وكذلك

الشاهد فكل ما وقع عليه اسم شاهد ومشهود فهو داخل في هذا القسم. وأيضاً فكتاب الأبرار في عليين، يشهده المقربون، فالكتاب مشهود، والمقربون شاهدون)[1]. أ.هـ.

(١) التبيان في أقسام القرآن لابن قيم الجوزية (ص ٨٩: ٩١).

المطلب الثالث

علاقة المقسم به بموضوعات "سورة البروج" الكلية

الناظر في علاقة المقسم به بموضوعات «سورة البروج» الكلية يجدها كأنها عقد قد نظمت حباته في تناسق بديع لا مثيل له، وترابط عجيب، وفيما يلي بيان ذلك على وجه التفصيل:

أولاً: علاقة القسم في "سورة البروج" بما قبلها:

لما ذكرت السورة السابقة على سورة البروج وهي سورة الانشقاق حال مشركي مكة حال سماعهم القرآن الكريم، وإعراضهم عنه، وامتناعهم عن السجود، وبينت أصناف الخلق ما بين مكذب ومؤمن، ومصير كل منهما من الجنة والنار قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۝٢١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ۝٢٢ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٢٥﴾ [الانشقاق: ٢٠: ٢٥]، أقسم الله في سورة البروج بالسماء على أن حال أهل مكة وما فعلوه بالنبي ﷺ والمؤمنين من التكذيب والنكال لم يخرج عما فعله أصحاب الأخدود مع الذين أمنوا بالله رب العالمين، ثم بين الله وعد المؤمنين ووعيد الكافرين مع التنويه بشأن القرآن، وفخامة قدره(١).

ثانياً: تثبيت المؤمنين، وتسليتهم عما أصابهم من أعدائهم، وبيان سنن الله الكونية:

سبق أن بينا أن المراد بـ"البروج": هنا: المنازل التي جعلها الله للكواكب والنجوم في السماء، وكذا منازل الناس العمل في الدنيا والجزاء في الآخرة؛ فموضوع «سورة البروج»: تأكيد أن لكل عمل جزاء؛ لأن الله خلق الكون، وجعله يسير وفق قوانين معينة؛ فللسماء منازل محددة، وجعل القيامة فيصلاً لما جرى في الدنيا من أعمال، وقد اقتضت حكمته

(١) انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (١٥/ ٢٩٤).

البالغة أن جعل شهوداً على أعمال خلقه، ولكل عامل جزاء، فالطغاة عُذبوا بالنيران، والذين آمنوا وعملوا الصالحات فازوا بالجنان.

قال الفيرزوآبادي: "معظم مقصود السورة: القَسَم على أَصحاب الأخدود، وكمال ملكه الملِك المعبود، وثواب المؤمنين فى جِوار المقام المحمود، وعذاب الكافرين فى الجحيم الموروود، وما للمطيع والعاصى من كرم الغفور الودود، والإشارة إلى هلاك فرعون وثمود"(١).

وقال البقاعي: "مقصودها الدلالة على القدرة على مقصود الانشقاق الذي هو صريح آخرها من تنعيم الولي، وتعذيب الشقي بمن عذبه في الدنيا ممن لا يمكن في العادة أن يكون عذابه ذلك إلا من الله وحده، تسلية لقلوب المؤمنين، وتثبيتاً لهم على أذى الكافرين، وعلى ذلك الذي أحاط بكل شيء قدرة وعلماً، الرحمن الذي عم الخلائق عدلاً وحلماً، الرحيم الذي خص أولياءه بإتمام النعمة عليهم عينا كما أظهره رسماً، وعلى ذلك دل اسمها البروج بتأمل القسم والمقسم عليه وما هدى ذلك السياق إليه"(٢).

من خلال ما سبق تبين لنا أن الله– سبحانه– أقسم بـ"السماء ذات البروج"؛ لما فيها من عظيم الخلق، وبديع الصنع بما يشهد على حكمة الله المقتضية أن يكون هناك ثواب للمطيعين، وعقاب للعصاة المكذبين، ثم أقسم بـ"اليوم الموعود"، وهو يوم القيامة الذي يكون فيه الجزاء والحساب، فإقسامه به يدل على تحقق وقوعه وعدم تخلفه.

ثم أقسم بكل "شاهد ومشهود"، ففي يوم الجزاء والحساب تكون الشهادة – إن كانت من الشهادة(٣) – فتشهد الأرض، والجوارح ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النُّور: ٢٤] ، والأنبياء ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البَقَرَة: ١٤٣] وغيرهم على ما حصل من المكذبين

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، (١/ ٥١٠).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (٢١ / ٣٥٢).

(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة، (٣/ ٢٢١)، ولسان العرب، (٣/ ٢٣٩).

في الدنيا، وفي ذلك اليوم يشهد الجميع ويحضرون– إن كانت الشهادة من الحضور[1]– ففيه دلالة على شهود الناس لذلك اليوم المشهود، وتحقق وقوعه، وتحقق ما فيه من الوعد والوعيد، وفي هذا كله تثبيت المؤمنين، وتسليتهم عما أصابهم من أعدائهم.

وكأن الله يريد أن يقول: إن من قبلهم من المؤمنين الموحدين ابتلوا ببطش أعدائهم بهم، واشتدادهم في إيذائهم حتى خدوا لهم الأخاديد، وملأوها بالنيران، وقذفوهم فيها، ولم تأخذهم بهم رأفة، بل كانوا يتشفون برؤية ما يحل بهم، وهم مع ذلك قد صبروا وثبتوا ثبوت السماء وعدم زحزحتها عن مكانها رغم تعاقب منازلها، وقد انتقم الله من أعدائهم وممن أوقع بهم، وأخذهم بذنوبهم أخذ عزيز مقتدر، فيعلم المؤمنون أن كفارهم عند الله بمنزلة أولئك المعذبين المحرقين بالنار، ملعونون أحقاء بأن يقال فيهم: قتلت قريش، كما قيل: قتل أصحاب الأخدود[2]؛ فبروج البشر تتهدم وتتساقط كما وقع لأصحاب الأخدود وغيرهم ممن فتنوا المؤمنين والمؤمنات، وبروج الله باقية، ملازمة للسماء؛ إذ هي باقية إلى قيام الساعة حتى يستبدلها الله في يوم البعث ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: ٤٨]. قال الفخر الرازي: (اعْلَمْ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ تَسْلِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ عَنْ إِيذَاءِ الْكُفَّارِ وَكَيْفِيَّةُ تِلْكَ التَّسْلِيَةِ هِيَ أَنَّهُ تَعَالَى بَيَّنَ أَنَّ سَائِرَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ كَانُوا كَذَلِكَ مِثْلَ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ وَمِثْلَ فِرْعَوْنَ وَمِثْلَ ثَمُودَ، وَخَتَمَ ذَلِكَ بِأَنْ بَيَّنَ أَنَّ كُلَّ الْكُفَّارِ كَانُوا فِي تكْذِيبٍ)[3].

لقد تبين لنا أن العلاقة بين المقسم عليه ومحور السورة الرئيس؛ هو أن "البروج": المصاعد أو المنازل هي النجوم العالية التي تتدرج في العلو حتى تصل إلى فضاءٍ في غاية البعد، فكذا الحادث الذي وقع بيانه في هذه السورة "أصحاب الأخدود" قد بلغت بهم

(١) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، (٢/ ٤٩٤)، ومختار الصحاح، (ص ١٦٩).

(٢) ينظر: الكشاف، (٤ / ٧٣٠)، وتفسير المراغي، (٣٠ / ٩٨، ٩٩).

(٣) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، (٣١ / ١٠٦).

الشناعة والفظاعة مبلغاً متطاولاً في أخلاق البشرية بحيث لا يكاد يصدقه أحد لولا حدوثه ووقوعه، تهويلاً له، وتشنيعاً بأهله(١).

فدلت المناسبة بين المقسم به على أن من كذب بالحق، وصد الخلق عنه موعود بعذاب شديد، ومعلون ومطرود عن رحمة الله – عز وجل– كما وقع لأهل الأخدود، وفي هذا تثبيت للمؤمنين على ايمانهم، وصبر على ما يلاقوا من عذاب مادي ومعنوي، كما فعل مؤمنو الأخدود الذين ثبتوا وصبروا على القذف في النار في سبيل التمسك بالعقيدة والذود عنها

ثالثاً: الدلالة على وحدانية الله- تعالى- وقدرته، وعدله، ونفاذ أمره:

إن القسم في "سورة البروج" يشير إلى واقعة من وقائع التغيير في حال العباد والبلاد حيث سقطت أبراج ملك ظالم كان يستعبد الخلق من دون الله، ويصور لهم أنه الإله، زاد في طغيانه حتى أسقط الله– تعالى– بروجه ومنازله، وليس ذلك الملك هو وحده تحت هذه السنة الربانية، وإنما شاهدت الدنيا، ورأت الأيام عدداً من هؤلاء من الذين يظلمون، ويستشرون بالفساد في الأرض حتى يبلغوا النهاية التي وضعها الله بسنته، وعندها يساقون وينتزع الله منهم الملك انتزاعاً، وتنهار بروجهم التي صنعوها؛ لأن "البروج": جمع برج، وهو البناء العالي الرفيع(٢)، تلكم الأبنية العالية الرفيعة إنها من شأن أهل العلو في الدنيا والسلطان، هم الذين يترفعون بأبنيتهم، ويعلون في الأرض بعروشهم كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرعَونَ لَعَال فِي ٱلأَرضِ﴾ [يُونُس: ٨٣] ، فالأبراج إشارة إلى القوة، ولا أقوى في البلاد وبين العباد من ملوكهم ورؤسائهم وأمرائهم وكبرائهم بما يظلمون ﴿فَأَوقِدلِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجعَل لِّي صَرحَا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [القَصَص: ٣٨].

(١) ينظر: التفسير الموضوعي، لنخبة من العلماء، (٩ / ٨٧، ٨٨)– جامعة الشارقة– الإمارات.

(٢) ينظر: تهذيب اللغة، (١١ / ٤٠)، وتاج العروس من جواهر القاموس، (٥/ ٤١٥).

إن الملك والجاه قد أعطى "لأصحاب الأخدود"، و"لفرعون وثمود"، الكبر فترفعوا على الخلق، وتعالوا عليهم، وظنوا أنهم أصحاب أبراج، وأن أبراجهم مانعتهم من الله حتى إذا اكتمل شرهم أخذهم عزيز مقتدر ﴿ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ۝١٧ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ۝١٨﴾ [البُرُوج: ١٦ – ١٨] ؛ وكأن الله يقول: إن هذه "البروج" لا تصادم بينها؛ بل انسجام وتكامل، فهي مطيعة لأمر ربها، يقابله ظلم الإنسان وإفسادهم الذي يستثير بأس الله الشديد في إعادة الأمور إلى نصابها، والأشياء إلى منازلها، وأماكنها الصحيحة التي قدرها هو لها ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البُرُوج: ١٢].

مما سبق ظهر لنا أن القسم بالسماء ذو أثر عجيب لمن تأمل، فليس في الكون المشاهد المحسوس آية أكبر منها، ولو تأمل الناس فيها حق التأمل لآمنوا وأذعنوا للواحد القهار، فهي آية عظيمة باعثة على اليقين والإيمان، ولو تأملها "أصحاب الأخدود" وغيرهم من المشركين والكافرين؛ لعرفوا عظمة الصانع، وقدرته الفائقة في مقابل عجزهم وضعفهم، ولما تجرؤوا على سفك دم المؤمنين، أو فتن العباد عن دينه عز وجل.

وأما مناسبة القسم بـ"اليوم الموعود في معرض سوق هذه القصة فظاهر واضح لكل متأمل ومتدبر؛ ذلك أن يوم القيامة هو موعد القصاص العادل من أصحاب الأخدود وغيرهم؛ حسبهم ذلك اليوم الموعود حيث توضع الموازين القسط فلا تظلم نفس شيئًا ﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾ [الأَنبِيَاء: ٤٧].

وأما القسم بـ"الشاهد والمشهود" فلعل مناسبته ولطيف ذكره هو أن محاكمة أصحاب الأخدود ومحاسبتهم، والاقتصاص منهم سيتم في هيئة تامة من العدالة حيث الشاهد على جريمتهم حاضر، والمشهود عليه أمرٌ واقع لا يسوغ إنكاره﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٢١﴾ [فُصِّلَت: ٢١].

وتأمل قوله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝٩﴾ [البُرُوج: ٩] الذي جاء في ثنايا المقسم عليه؛ إنه إعلان صريح، وتذكير واضح بنفوذ

قدرة الله، وبسط نفوذه على العالم بأسره، إنه مشهد يوحي بالتهديد الشديد؛ فالله شهيد على كلِّ شيء، وليس على "أصحاب الأخدود" فحسب، وهو– سبحانه– شهيد بنفسه، وهو أعظم شاهد ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩].

قال الإمام البقاعي: "ولما قدم سبحانه التحذير بالشاهد والمشهود، وأن الكافرين شهود على أنفسهم، زاد في التحذير بأنه سبحانه أعظم شهيد في ذلك اليوم وغيره؛ فهو لا يحتاج إلى غيره، ولكنه أجرى ذلك على ما يتعارف عليه البشر فقال: {وَاللَّهُ} أي: الملك الأعظم الذي له الإحاطة الكاملة {عَلى كُلِّ شَيْءٍ} أي: هذا الفعل وغيره {شَهِيدٌ} أي: أتم شهادة لا يغيب عنه شيء أصلاً، ولا يكون شيء ولا يبقى إلا بتدبيره، ومن هو بهذه الصفات العظيمة لا يهمل أولياءه أصلاً، بل لا بد أن ينتقم لهم من أعدائه ويعليهم بعلوه، ولذلك قال مستأنفًا جوابًا لمن يقول: فما فعل بهم؟ مؤكدًا لإنكار الكفار ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ [البُرُوج: ١٠] أي: خالطوا من الأذى بما لا تحتمله القوى فلا بد أن يميل أو يحيل في أي زمان كان ومن أي قوم كانوا ﴿ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [البُرُوج: ١٠] أي: ذوي الرسوخ في وصف الإيمان. وقد صدق سبحانه قوله هذا فيمن كذب النبي ﷺ بإهلاكهم شر إهلاك، مغلوبين مقهورين مع أنهم كانوا قاطعين بأنهم غالبون كما فعل بمن كان قبلهم، فدل ذلك على أنه على كل شيء قدير، فدل على أنه يبدىء ويعيد"[(١)].

رابعاً: التنويه بشأن القرآن الكريم، ورفعة مكانته:

جاء قوله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝٢٢ ﴾ [البُرُوج: ٢١ – ٢٢] ردٌّ لكفر المشركين، وإبطالٌ لتكذيبهم، وتحقيقٌ للحقِّ، أيْ: ليسَ الأمرُ كَما قالُوا بلْ هُو كتابٌ شريف عالِي الطبقةِ فَيما بينَ الكتبِ الإلهيةِ في النظمِ والمَعْنى[(٢)]، لا يمحوه شيء، فإنه

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (٢١ / ٣٥٨: ٣٥٩).

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (٩ / ١٣٩).

ثابت في السطور، ومحفوظ في الصدور؛ فإنه تعالى تولى حفظه، وظهوره أبد الآبدين[١] كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحنُ نَزَّلنَا ٱلذِّكرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحِجر: ٩].

قال الإمام البقاعي: "كما أن البروج محفوظة في لوح السماء المحفوظ، بل القرآن بذلك أولى؛ لأنه صفة الخالق في بيان وصفه لما خلق على الوجه الأتم الأعدل؛ لأنه ترجمة ما أوجده الله سبحانه في الوجود، فصح قطعاً أنه لا بد أن يصدق في كل ما أخبر به، ومن عظمته أنه سبحانه يحشر الناس للدينونة بالثواب والعقاب كما دان من كذب أولياءه في الدنيا بمثل ذلك، فأخذ أعداءه، وأنجى أولياءه، فرجع الختام منها على المبتدأ، وتعانق الافتتاح بالمنتهى، فاقتضى ذلك تنزيه المتكلم به عن أن يترك شيئاً فضلاً عن الأنفس بغير حفظ وعن كل ما لا يليق، وإثبات الكمالات له والأكمليات بكل طريق – والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وإليه المهرب والمتاب"[٢].

وقال الطاهر بن عاشور: (وَسَوْقُ وَصْفِ فِي لَوْحٍ مَسَاقَ التَّنْوِيهِ بِالْقُرْآنِ وَبِاللَّوْحِ، يُعَيِّنُ أَنَّ اللَّوْحَ كَائِنٌ قُدْسِيٌّ مِنْ كَائِنَاتِ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ الْمُغَيَّبَاتِ، وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ أَكْثَرُ مِنْ أَنَّ اللَّوْحَ أُودِعَ فِيهِ الْقُرْآنُ، فَجَعَلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ مَكْتُوبًا فِي لَوْحٍ عُلْوِيٍّ كَمَا جَعَلَ التَّوْرَاةَ مَكْتُوبَةً فِي أَلْوَاحٍ وَأَعْطَاهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: ﴿وَكَتَبنَا لَهُۥ فِي ٱلأَلوَاحِ مِن كُلِّ شَيء﴾ [الأَعرَاف: ١٤٥] ، وَأَمَّا لَوْحُ الْقُرْآنِ فَجَعَلَهُ مَحْفُوظًا فِي الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ)[٣].

من خلال ما سبق تبين لنا أن "سورة البروج" لم تخرج عن المقاصد الكلية التي اشتمل عليها القرآن الكريم، وقد برز الإعجاز في أسلوب القسم في هذه السورة من كافة جوانبه، ولو أبدل شيء منه؛ لاختل نظْمه القرآني، وانفرطت حباته، وضاع تناغمه ولأدى إلى إظهار السورة بصورة مفككة مهلهلة، أما القسم على ما هو عليه في السورة الكريمة فيشعرك كأنه جداول صغيره تسقي المجرى الأساس الذي يدور عليه موضوعها، وهو: "تثبيت المؤمنين، وتسليتهم عما أصابهم من أعدائهم"، والله أعلم.

---

(١) ينظر: محاسن التأويل، (٩ / ٤٤٧).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (٢١ / ٣٦٨: ٣٦٩).

(٣) التحرير والتنوير، (٣٠ / ٢٥٣).

خامساً: الرد على كفار قريش المنكرين للبعث، ومحاجتهم بقدرة الله على البعث بخلق السماوات والأجرام العلوية:

سبق أن ذكرت أن الله جلّ ثناؤه أقسم بالسماء ذات البروج، وأن المقسم به في قوله سبحانه: ﴿ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢ ﴾ [البُروج: ٢] ، وقوله تعالى: ﴿ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ۝٣ ﴾ [البُروج: ٣]، قد اختلف فيه المفسرون على أقوال كثيرة، ومنها: أن المراد به "يوم القيامة"، وأهل مكة دائماً ما كانوا يجادون النبي – ﷺ – في شأن البعث بعد الموت، ومجيء يوم القيامة، وقد حكى القرآن الكريم عنهم في غير آية إنكارهم ذلك واستبعادهم وقوعه، فبيَّن الله هنا في سورة البروج أن في ذلك اليوم الموعود واقع لا محالة؛ للفصل بين الخلائق والقضاء بينهم(١)، فإن الله تعالى وعد أهل السماء وأهل الأرض أن يجتمعوا فيه، وسيرون ما يحدث فيه من عجائب كما رأى الناس ما وقع من أصحاب الأخدود مع المؤمنين؛ إذ كان على مرأى ومسمع من الجميع، وكان حدثاً غريباً شنيعاً؛ فالله سبحانه سيوقف الجميع في اليوم الموعود(٢)، وسيشهد الجميع بما كسبت يداه، فلا مهرب ولا مفر من إنكار ذلك، والتفلت منه، فكذا وقوع البعث والإحياء بعد الموت كائن لا محالة، فكأن المشركين يعايشون هذا الموقف حقيقة، ويكأن الله يبين لهم أن الذي يقدر على خلق السماء ذات البروج، وما فيها من دلائل عجيبة الصنع والإتقان، فهو قادر على إعادة الإجساد، وحشر الخلائق، وجمعهم في اليوم الموعود.

سادساً: علاقة القسم في سورة البروج بكليات القرآن الكريم ومقاصده العليا:

المستقرىء لآي الذكر الحكيم بتعدد آياته وسوره وموضوعاته يجد أن له مقاصد كلية يرشد إليها، وقد أشار إلى هذه المقاصد الإمام ابن القيم – رحمه الله– بقوله: (ذكر الوجوه التي تنقسم إليها معاني ألفاظ القرآن وهي عشرة أقسام:

---

(١) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، (٢٤ / ٣٣٢).

(٢) انظر: مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد، لمحمد بن عمر نووي الجاوي البنتني، (٢/ ٦١٦)، ط: ١: دار الكتب العلمية – بيروت– ١٤١٧ هـ.

القسم الثاني: ما استشهد به على ذلك من آيات قدرته وآثار حكمته فيما خلق وذرأ في العالم الأعلى والأسفل من أنواع بريته وأصناف خليقته محتجاً به على من ألحد في أسمائه وتوحيده وعطله عن صفات كماله وعن أفعاله وكذلك البراهين العقلية التي أقامها على ذلك والأمثال المضروبة والأقيسة العقلية التي تقدمت الإشارة إلى الشيء اليسير منها.

القسم الرابع: ذكر المعاد والنشأة الأخرى وكيفيته وصورته وإحالة الخلق فيه من حال إلى حال وإعادتهم خلقاً جديداً.

القسم الخامس: ذكر أحوالهم في معادهم وانقسامهم إلى شقي وسعيد ومسرور بمنقلبه ومثبور به وما يتبع ذلك.

القسم السادس: ذكر القرون الماضية والأمم الخالية وما جرى عليهم وذكر أحوالهم مع أنبيائهم وما نزل بأهل العناد والتكذيب منهم من المثلات وما حل بهم من العقوبات ليكون ما جرت عليه أحوال الماضين عبرة للمعاندين فيحذروا سلوك سبيلهم في التكذيب والعصيان.

القسم السابع: الأمثال التي ضربها لهم والمواعظ التي وعظهم بها ينبههم بها على قدر الدنيا وقصر مدتها وآفاقها ليزهدوا فيها ويتركوا الإخلاد إليها ويرغبوا فيما أعد لهم في الآخرة من نعيمها المقيم وخيرها الدائم)[1].

ومن خلال النظر في سورة البروج نجد أنها لم تخرج عن تلك المقاصد الكلية التي عليها مدار الكتاب الحكيم، بل حوت جملة كبيرة من تلك المقاصد التي أوردها ابن القيم- رحمه الله- بدء من ذكر بعض آيات قدرته وآثار حكمته فيما خلق وذرأ في العالم الأسفل، وبيان هيمنته على الخلق والملك، والإشارة على وقوع يوم القيامة، وذكر أحوال الناس وانقسامهم إلى شقي وسعيد ومسرور بمنقلبه ومثبور به وما يتبع ذلك، وذكر القرون الماضية والأمم

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، (٢/ ٦٨٤)، ت: علي بن محمد الدخيل الله- ط: ١: دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٨هـ.

الخالية وما جرى عليهم من العذاب والنكال للمكذبين كفرعون وثمود وما حل بهم من العقوبات ليكون ما جرت عليهم عبرة للمعاندين فيحذروا سلوك سبيلهم في التكذيب والعصيان ثم ختم الله السورة بالرد على من ألحد في أسمائه وتوحيده وعطله عن صفات كماله وعن أفعاله، بأنه فعال لما يريد، ذو العرش، محيط بكل شيء، والله أعلم.

المطلب الرابع

الدلالات التربوية التي اشتمل عليها أسلوب القسم في "سورة البروج"

إن القسم في هذه السورة يبين سنة من سنن الله الربانية، وحادثة من حوادث محاربة الذات الإلهية؛ لأن كفار قريش عارضوا النبي – ﷺ – وأذوه وحاربوه، فهذه السورة تخاطبهم، وتذكرهم، وتنذرهم؛ فهي سورة مكية، كشفت عن عاقبة الظالمين مهما ارتفعت أبراجهم، وعظمت قواتهم، فهذه نهايتهم، فليحذروا كي لا يصيبهم ما أصابهم؛ وليصطبر أهل الإيمان؛ إذ الليل البهيم يعقبه صبح مشرق، يبدد ظلامه وظلماته، وكذلك ظلام الشرك والجهل، يلزم أن يعقبه نور الحق واليقين.

لقد أحدث هذا القسم تربية نفسية، وهزة واقعية ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩﴾ [المُزَّمِّل: ١٩] ، فهو قسم صالح لكل زمان ومكان، فمتى عمل الخلق به انتفعوا وارتفعوا، وثبت ملكهم، ومتى خالفوه فظهرهم مقصوم، وأمرهم معدوم، وبروجهم ذاهبة لا بقاء لها، وتلك سنة الله – تعالى– في خلقه.

قال الطاهر بن عاشور: (إِن فِي افْتِتَاحِ السُّورَةِ بِهَذَا الْقَسَمِ تَشْوِيقٌ إِلَى مَا يَرِدُ بَعْدَهُ وَإِشْعَارٌ بِأَهَمِّيَّةِ الْمُقْسَمِ عَلَيْهِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَلْفِتُ أَلْبَابَ السَّامِعِينَ إِلَى الْأُمُورِ الْمُقْسَمِ بِهَا، لِأَنَّ بَعْضَهَا مِنْ دَلَائِلِ عَظِيمِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ الْمُقْتَضِيَةِ تَفَرُّدَ اللَّهِ – تَعَالَى– بِالْإِلَهِيَّةِ، وَإِبْطَالَ الشَّرِيكِ، وَبَعْضُهَا مُذَكِّرٌ بِيَوْمِ الْبَعْثِ الْمَوْعُودِ، وَرَمَزَ إِلَى تَحْقِيقِ وُقُوعِهِ؛ إِذِ الْقَسَمُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِشَيْءٍ ثَابِتِ الْوُقُوعِ، وَبَعْضُهَا بِمَا فِيهِ مِنَ الْإِبْهَامِ يُوَجِّهُ أَنْفُسَ السَّامِعِينَ إِلَى تَطَلُّبِ بَيَانِهِ)[1].

كما إن هذا القسم يبعث الراحة والطمأنينة في النفس حيث يستميل المشاعر والوجدان، ويثير الانتباه والتفكير إلى الكون وما يحتويه من حقائق وأسرار، ونظام بديع محكم، وأن ثمة قوة عليا هي التي تدبر وتبدئ وتعيد ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البُرُوج: ١٦] ، وفي هذا رد على من اعتقد أن السماء أو النجوم آلهة، وأن لها تصرفاً في العالم السفلي، كما أنه

(١) التحرير والتنوير، (٣٠ / ٢٣٧).

يثير لدى الإنسان الفضول العلمي، وحُب الاستطلاع، فيأخذ في توجيه أنظاره إليه بالبحث والتنقيب، ومحاولة تسخيره لمنافعنا، والله أعلم.

خاتمة

أحمد الله على ما هدى، ووفق ويسر، بإتمام هذه الدراسة التي توصلت إلى **أهم النتائج فيها حسب الآتي:**

أولاً: إن "سورة البروج" قد حوت أوضح الدلائل، وأنصع البراهين التي تشهد بأن هذا القرآن من عند الله حيث ساقت ما ساقت بأسلوب يمتاز بحسن التقسيم، وجمال العرض، ومن أبرز أغراضه: إشعار المسلمين بأن قوة الله عظيمة، والتعريض بكرامتهم عنده سبحانه، وسوء مصير الكافرين في الآخرة، وتسلية المؤمنين مما يلقونه من أذى المكذبين الضالين.

ثانياً: إن القسم طريق من طرائق توكيد الكلام، وإبراز معانيه ومقاصده على النحو الذي يريده المتكلِّم؛ إذ يؤتى به لدفع إنكار المنكرين أو إزالة شك الشاكِّين؛ ليكون أوقع في التلقي، وأرجى للقبول.

ثالثاً: أقسم الله – عز وجل– في «سورة البروج» بثلاث أشياء هي: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ۝٣ ﴾ [البُروج: ١ – ٣].

رابعاً: إن الراجح في المقسم به في قوله سبحانه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ١﴾ هو معنى: "المنازل الخاصة بالكواكب السيارة، ومداراتها الفلكية الهائلة"؛ لأنه قول جمهور المفسرين، ويتفق مع اللغة التي نزل بها القرآن الكريم، وهي لغة العرب، فهذا القول قد اعتمد على المعنى الأشهر من اللفظ.

خامساً: اتفق المفسرون على أن المراد بالمقسم به في قوله سبحانه: ﴿ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢ ﴾ هو "يوم القيامة وعد الله أهل السماء وأهل الأرض أن يصيروا إلى ذلك اليوم".

سادساً: اختلف أهل التفسير في المعنى بالمقسم به في قوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ٣﴾ اختلافاً كثيراً، وإذا تأملته وجدتَه من قبيل "اختلاف التنوع"، وأنه من قبيلِ "التفسير بالمثال" أو "الاسم العام" الذي يذكر المفسِّرون له أمثلةً تدلُّ عليه.

سابعاً: اختلف العلماء في المراد بالمقسم عليه، والراجح عندي – والله أعلم – أنه قوله تعالى: ﴿ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ۝٤﴾؛ لتحقق العلاقة بين المقسم عليه والمقسم به، ويكون خبر من الله عما حدث مع هؤلاء.

ثامناً: علاقة المقسم به بالمقسم عليه في «سورة البروج» علاقة وطيدة؛ فكل منهما آخذ بحجز الآخر، ولا ينفك أحدهما عن صاحبه؛ لأن المقسم عليه تضمن العبرة بقصة أصحاب الأخدود، ولما كانت الْأَخَادِيدُ خطوطًا، مجعولة في الأرض، مُسْتَعِرَةً بالنار، أقسم على ما تضمنتها بالسماء بقيد صفة من صفاتها التي يلوح بها للناظرين في نجومها، وهي تشبه دَارَاتٍ مُتَلَأْلِئَةً بأنوار النجوم اللامعة الشبيهة بتلهب النار.

تاسعاً: إن "سورة البروج" لم تخرج عن المقاصد الكلية التي اشتمل عليها القرآن الكريم، وقد برز الإعجاز في أسلوب القسم في هذه السورة من كافة جوانبه، ولو أبدل شيء منه؛ لاختل نظْمه، وانفرطت حباته، وضاع تناغمه، ولأدى إلى إظهار السورة في هيئة مفككة مهلهلة، أما القسم على ما هو عليه في السورة فيشعرك كأنه جداول صغيره تسقي المجرى الأساس الذي يدور عليه موضوعها، وهو: "تثبيت المؤمنين، وتسليتهم عما أصابهم من أعدائهم".

عاشراً: أحدث القسم في "سورة البروج" تربية نفسية واقعية؛ إذ هو صالح لكل زمان ومكان، متى عمل الخلق به انتفعوا، وارتفعوا، وثبت ملكهم، ومتى خالفوه فظهرهم مقصوم، وأمرهم معدوم، وبروجهم ذاهبة لا بقاء لها، وتلك سنة الله جارية على خلقه.

- **كما أوصي الباحثين والباحثات**: أن يتناولوا أسلوب "القسم" وعلاقته بموضوع السورة القرآنية، في بقية السور التي لم تتم دراستها، ويعمقوا النظر فيها، ويقفوا مع جماليات التعبير فيها، وما تحملها من دلالات ونكات بيانية، والله أعلى وأعلم.

******

المصادر والمراجع

[١] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت: ٩٨٢هـ)، ط: إحياء التراث العربي.

[٢] أساس البلاغة، للزمخشري جار الله- ت: محمد باسل عيون السود ط:١: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

[٣] إعراب القرآن، لأبي جعفر النَّحَّاس- ط: ١، دار الكتب العلمية،١٤٢١هـ.

[٤] أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لناصر الدين الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ)، ط:١، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٨ هـ.

[٥] البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ)، ط: دار الفكر، بيروت،١٤٢٠ هـ.

[٦] بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروزآبادى (ت: ٨١٧هـ)- ت: محمد علي النجار- ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

[٧] البيان في عدِّ آي القرآن- لأبي عمرو الداني، المحقق: غانم قدوري الحمد- ط:١ مركز المخطوطات والتراث – الكويت، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.

[٨] تاج العروس من جواهر القاموس لمرتضى، الزَّبيدي (ت: ١٢٠٥هـ)- المحقق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.

[٩] التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء العكبري - ت: علي محمد البجاوي- الناشر: عيسى البابي الحلبي وشركاه.

[١٠] التبيان في أقسام القرآن، لابن قيم الجوزية- ت: محمد حامد الفقي- ط: دار المعرفة، بيروت، لبنان.

[١١] التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ)، ط: الدار التونسية، ١٩٨٤هـ.

[١٢] تفسير القرآن العظيم، لابن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)، ط: ١: دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ .

[١٣] تفسير المراغي، لأحمد بن مصطفى المراغي (ت: ١٣٧١هـ)- ط: ١: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م.

[١٤] التفسير الوسيط للقرآن الكريم، أ.د / محمد سيد طنطاوي، ط: ١، دار نهضة مصر، القاهرة.

[١٥] تهذيب اللغة، لأبي منصور الأزهري (ت: ٣٧٠هـ)- ط: ١: دار إحياء التراث العربي - بيروت، ٢٠٠١م.

[١٦] جامع البيان في تأويل القرآن، لمحمد بن الطبري (ت: ٣١٠هـ)- المحقق: أحمد محمد شاكر، ط: ١: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ.

[١٧] الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري- للإمام أبي عبد الله البخاري، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة- الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

[١٨] الجامع لأحكام القرآن، لعبد الله شمس الدين القرطبي (ت: ٦٧١هـ)، ط: ٢: دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٨٤هـ.

[١٩] دراسات في علوم القرآن، محمد بكر إسماعيل- ط: ٢: دار المنار- ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.

[٢٠] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للآلوسي، ط:١، دار الكتب العلمية، ١٤١٥ هـ.

[٢١] زاد المسير في علم التفسير، لجمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت: ٥٩٧هـ)، ط: ١:دار الكتاب العربي،١٤٢٢هـ .

[٢٢] الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية- لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري

الفارابي (ت: ٣٩٣هـ)- ت: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت- الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

[٢٣] فتح القدير، لمحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت: ١٢٥٠هـ)، ط: ١، دار ابن كثير، ١٤١٤ هـ.

[٢٤] الكشاف عن حقائق التنزيل، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت: ٥٣٨هـ)، ط: ٣: دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ.

[٢٥] لسان العرب، لابن منظور، ط: ٣: دار صادر، بيروت، ١٤١٤ هـ.

[٢٦] محاسن التأويل، لمحمد جمال الدين القاسمي (ت: ١٣٣٢هـ)- ت: محمد باسل عيون السود- ط:١: دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤١٨ هـ.

[٢٧] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، ط: ١: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ.

[٢٨] المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده المرسي [ت: ٤٥٨هـ]- ت: عبد الحميد هنداوي- ط: ١: دار الكتب العلمية، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.

[٢٩] مختار الصحاح للرازي (ت: ٦٦٦هـ)- ت: يوسف الشيخ- ط:٥: المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت – صيدا، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

[٣٠] المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ - لمسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)- ت: محمد عبد الباقي- ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

[٣١] معالم التنزيل في تفسير القرآن، لمحيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: ٥١٠هـ)، ط: ١: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠ هـ.

[٣٢] معجم مقاييس اللغة- لابن فارس (ت: ٣٩٥هـ)- ت: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر- عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

[٣٣] مفاتيح الغيب= التفسير الكبير، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، ط: ٣: إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ.

[٣٤] المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ)- المحقق: صفوان عدنان الداودي، ط: ١: دار القلم، بيروت، ١٤١٢هـ.

[٣٥] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لابن أبي بكر البقاعي (ت: ٨٨٥هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

[٣٦] الواضح في علوم القرآن، مصطفى ديب البغا، محيى الدين ديب مستو، ط:٢: دار الكلم الطيب، دار العلوم الانسانية – دمشق، ١٤١٨ هـ.

[٣٧] الوسيط في تفسير القرآن، المجيد للواحدي، (ت: ٤٦٨هـ)، دار الكتب العلمية– لبنان– الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٤ م.